

التفسير المطول - سورة الرحمن 055 - الدرس 04-07: تفسير الآيات: 26-30 - حكمة فناء الخلق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ : 05-01-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

ظنّ الملائكة بأن كل من على الأرض فان فقط:

أيها الأخوة المؤمنون؛ مع الدرس الرابع من سورة الرحمن، ومع الآية السادسة والعشرين.

بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الله عزّ وجل في الآية السادسة والعشرين:

**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)**

سورة الرحمن

ماذا نستفيد من هذه الآية؟ ربنا سبحانه وتعالى يُعَلِّمُنَا أن كل من على الأرض فان، لأن الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة قال: ﴿وَالْأَرْضُ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ فلما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ الهاء هنا تعود على الأرض ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فظن الملائكة أن كل من على الأرض فان فجاء قوله تعالى:

**وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)**

سورة القصص

فوائد فناء الخلق:

## 1- الخلق كلهم متساوون:

أيها الأخوة؛ يجب أن نقف وقفةً متأنيةً عند هذه الآية، فناء الخلق ماذا يفيدنا؟ أول فائدة تُستفاد من فناء الخلق أن الخلق كلهم سوف يتساوون، فالموت يُلغي غنى الغني، ويلغي فقر الفقير، ويلغي قوة القوي وضعف الضعيف، يلغي صحّة الصحيح ومرضى المريض، يُلغي وسامة الوسيم ودمامة الدميم، كل شيء يُلغى في الموت، يعود الإنسان كأى إنسان خلقه الله عزّ وجل؛ العظماء، الكبراء، الأغنياء، الجبابرة، الملوك، الضعفاء، المرضى، المقهورون، المستضعفون: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ هذا هو المعنى الأول.

## 2- فناء الخلق سبب لانتقالهم إلى الدار الآخرة:

المعنى الثاني أيها الأخوة؛ أن الإنسان حينما يفنى فناؤه سبب لانتقاله من دارٍ إلى دار، إن فناء الخلق سبب لانتقالهم إلى الدار الآخرة، وشتان بين الدارين، دارٌ دُنيا، ودارٌ عُليا، دارٌ أساسها الفناء، ودارٌ أساسها البقاء، دارٌ أساسها الهمّ والحزن، ودارٌ أساسها الطمأنينة والأمل، دارٌ أساسها الكدّ والسعي، ودارٌ أساسها العطاء، دارٌ أساسها التكليف ودارٌ أساسها التشريف، دارٌ أساسها العمل ودارٌ أساسها الجزاء، فلولا الفناء لما انتقلنا إلى الدار الآخرة. والحقيقة الدنيا إعدادٌ للآخرة، لكن الحياة التي تُمثّل كرم الله عزّ وجل وعطاءه الأبدي السرمدي هي الدار الآخرة، العظيم إذا أعطى لا يأخذ، لكن كل عطاء الدنيا سوف يؤخّذ، هل يبقى شيء؟ هل يبقى المال؟ هل يبقى العزّ والسلطان؟ هل يبقى الشباب المتألق؟ هل يبقى التمتع بملاذ الدنيا؟ أتناسب الدنيا مع كرم الله عزّ وجل؟ الموت يُنهي كل شيء؛ ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي صحّة الصحيح، مرض المريض، وسامة الوسيم، دمامة الدميم، يُنهي كل شيء: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

## الأحمق من يعلق آماله على الدنيا:

الشيء الأول الذي يُستفاد من فناء الخلق أنهم سوف يتساوون مساواةً تامّة، ما الفرق بين أن يموت إنسانٌ فقيرٌ ضعيفٌ ويوضع في حفرةٍ وبين أن يموت ملكٌ قوي ويوضع في حفرةٍ وينتهي الأمر وبعد حين تفنى الجُنتان؟ استوى العظيم مع الصغير، استوى الغني مع الفقير، الموت يسوي بيننا جميعاً، الموت سبب لانتقال الإنسان من دار العمل إلى دار الجزاء، من دار

التكليف إلى دار التشريف، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار المتاعب إلى دار الطمأنينة، قيل: إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء-الآخرة دار استواء-ومنزل ترح لا منزل فرح- الآخرة دار فرح- فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى.

الذي يلفت النظر أن الإنسان يعلّق آماله الكبيرة على الدنيا وحياته منوطةً بسيولة دمه، فإذا تجمّد بضع من دمه في شرايينه يقول لك: أصابته جلطة ومات، إذا تجمّدت نقطة دم في دماغه يقول لك: خثرة دماغية، شلّ شللاً نصفياً، غاب عن الوعي، فقد نُطقه، فقد ذاكرته، فهذا الذي يُعلّق الآمال على الدنيا على أي شيء يرتكز؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

### الوقت أغلى شيء في حياة الإنسان:

أيها الأخوة؛ والله العقل كل العقل، والفلاح كل الفلاح، والذكاء كلّ الذكاء، والتوفيق كل التوفيق، والنفوق كل التفوق في العمل للآخرة، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام: عَنْ شَدَّادِ ابْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :  
الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ .

الترمذي : حكم المحدث : صحيح

نحن في هذا المسجد المتواضع كم أخ غادرنا في هذه السنوات العشرين؟ كم أخ كان معنا ثم غادرنا؟ هكذا الحياة الدنيا، من منا يضمن أن يعيش ساعة بعد هذه الساعة؟ ثانية؟ الموت يأتي بغتة، فلذلك عندما يقول ربنا عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي أن أيها الإنسان احرص على الوقت، الإنسان حينما يستيقظ معنى ذلك أن الله سمح له أن يعيش يوماً جديداً، ما من يوم ينشئ فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد فتزوّد مني.

### العمل الصالح أساس النجاة من النار:

لو أن الإنسان حاسب نفسه كل يوم مساءً، ماذا فعلت من عملٍ ينفعني بعد الموت؟ أما ماذا فعلت من عملٍ ينفعني في الدنيا؟ الإنسان في حركة دائمة، يتحرّك دائماً لكسب المال، لتحقيق مصالحه في الدنيا، ولكن السؤال المُخرَج هذا اليوم قد انقضى قبل أن ينام: ماذا فعلت فيه من عملٍ ينفعني بعد الموت؟ هل طلبت علماً؟ هل علّمت علماً؟ هل أمرت بمعروف؟ هل نهيت عن منكر؟ هل قرأت القرآن؟ هل ذكرت الواحد الديان؟ هل نصحت مسلماً؟ هل أعنت

فقيراً؟ هل عُدت مريضاً؟ هل شَيَّعت جنازة؟ هل مسحت رأس يتيماً؟ هل اعتنيت بامرأة أرملَةٍ من أقربائك من محارمك؟ اعتنيت بها؟ أمَّنت لها حاجاتها؟ ماذا فعلت من عملٍ ينفَعك بعد الموت؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

### المعاصي والطاعات تنتهي ويبقى المسؤولية والثواب:

توجد ملاحظة ثالثة أيها الأخوة؛ المعاصي إذا توهم المتوهمون أن لها لذائذ فإن هذه اللذائذ تنقضي وتبقى المسؤولية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ والطاعات إن كانت ذات كلفة وذات مشقة تنقضي المشقة ويبقى الأجر والثواب، تماماً كما لو أن طالبين أحدهما أمضى العام الدراسي مع أصدقائه، وفي نزهاة، وفي سهرات باطلية، ثم جاء الامتحان، والثاني أمضى العام الدراسي في جدّ وتعبٍ واجتهاد وسهرٍ وكَد، الامتحان هو الفيصل، الذي نجح بتفوق ينسى كل أتعابه، وتبقى لذّة الفوز، والذي رسب ينسى كل لذائذه ويبقى خزي الرسوب: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الفناء يسوي بين الناس ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الفناء سبب لنقله الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء، الإنسان أحياناً يكون ساكناً في بيت صغير، قميء، مظلم، متألّم أشد الألم، ضيق، فجأة لسببٍ أو لآخر ينتقل لبيتٍ واسع، مشرف، له إطلالة، فيه كل حاجات الإنسان. أيها الأخوة؛ هذا السبب الذي نقله من هذه الدار إلى تلك الدار سبب مؤلم أم مفرح؟ مفرح.

### الفناء سبب لنقله الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء:

لذلك المؤمن ينتقل من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، كيف أن المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، الدنيا ضيقة إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم -سبعمة وخمسون سنتيمتراً مكعباً- إلى سعة الدنيا، يسافر إلى كندا، إلى اليابان، يركب الطائرات، يرى القارّات الخمس، يرى البحار، كان في الرحم، وكذلك المؤمن ينتقل من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، كذلك المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، فالفناء سبب الانتقال، والفناء سبب المساواة، والفناء يعني أن الوقت محدود.

تصور طالباً في الامتحان معه ثلاث ساعات -الآن ساعتان- وهذه مادة أساسية ويعلق آمالاً عريضةً على نجاحه في هذه المادة، هل من الممكن في هاتين الساعتين أن يصلح ساعته؟ أو أن يعبث بقلمه؟ أو أن يصلح ثوبه؟ أو أن يمتنع عن الكتابة؟! الوقت محدود، مادام هناك نهاية للوقت وهذا الوقت ثمين، وفيه مهمة خطيرة، فلما ربنا عز وجل يقول لنا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَاَن﴾ أي أيها الإنسان إنك ميت، وعندما يموت الإنسان يُختم عمله، ليس هناك من عملٍ صالحٍ بعد الموت، لا توجد أعمال صالحة؛ لا يوجد مال، لا يوجد وقت تصلي فيه، ولا يوجد وقت تتعلم فيه، ولا يوجد وقت تعلم فيه، ولا يوجد وقت تنصح الناس، ولا يوجد وقت تبذل مالك، ولا يوجد مال تتفقه أساساً.

#### مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)

سورة الفاتحة

خُتِمَ العمل.

العاقل من يستعد للموت بالتوبة النصوح:

عندما يقول ربنا عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَاَن﴾ أي الوقت ضيق، والحقيقة أيها الأخوة الكرام نحن زمن، نحن في حقيقتنا الأساسية زمن، ومُضِيُّ الزمن يستهلكنا، وكل واحد كلما عاش يوماً قلَّ عمره يوماً، تماماً كقطارٍ انطلق من محطةٍ وسيقف في المحطة التالية، فكل دقيقة تقربه من المحطة التالية، فالأولى بالإنسان أن يَعُدَّ عمره عدداً تنازلياً، وكل واحد وصل إلى الأربعين هناك سؤال محرج وسؤال خطير، وهذا السؤال: هل بقي بقدر ما مضى؟ كلكم يعلم كلما مات رجل فاسألوا عن عمره، اثنان وستون، تسعة وخمسون، ثلاثة وخمسون، تسعة وأربعون، أربعة وسبعون، أما ثمانون فقلائل جداً، النبي يقول: معترك المنايا بين الستين والسبعين، سيّد الخلق عاش ثلاثاً وستين سنة، فإذا شخص بلغ الأربعين معنى هذا أن الذي بقي أقل مما مضى، والذي مضى مضى كلمح البصر، إذاً الذي بقي يمضي مثله، فهذا الموت آتٍ لا محالة، كلما ازداد عقلك، وكلما ازدادت بصيرتك تستعد له، لا أحد يستطيع أن يلغي الموت، ولا أحد يمكن أن يُنكر الموت، لا إنكار ولا إلغاء، ولكن الإنسان يستعد للموت بالتوبة النصوح، بالعمل الصالح، بطلب العلم، بالأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، بالدعوة إلى الله، بخدمة الخلق، بعملٍ تبتغي به وجه الله.

أيها الأخوة الكرام؛ بعض الأحاديث أكررها كثيراً، قيل: "بادروا بالإعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا؟" هذه الدنيا لو تمتعت بها بالمال، بالصحة، بالجاه، بالزوجة، بالأولاد، كل شيء على ما يُرام، سؤال واقعي: هل بإمكانك أن تعيش على هذه الحال إلى أبد الأبد؟ هل من الممكن أو هل في الإمكان أن تستيقظ كل يوم كالليوم السابق لا يوجد فيك شيء؟ لا، الذي أراه من خلال التجارب عندما الإنسان يدنو أجله يُصاب بعطب في أجهزته، قد يبدأ العطب من كليتيه، أو من كبده، أو من قلبه، أو من دماغه، أو من أعصابه، أو من جريثم أصابه، أو من حادثٍ حدث له، فالموت لا بُدَّ واقع وله مقدمات، ولكن من رحمة الله جلَّ جلاله علينا أن الإنسان بعد الأربعين خَطُّه البياني يهبط، يضطر إلى وضع نظارة على عينيه، يشيب شعره، ينحني ظهره، يشعر بألمٍ في مفاصله أحياناً، ما معنى ذلك؟ كان من الممكن أن تبقى نشيطاً شاباً إلى ساعة الوفاة، لكن الله أراد للإنسان أن ينزل خَطُّه البياني لعله يتذكَّر أنه سيلقى الله، فهذا ضعف البصر، وضعف السمع أحياناً، وهن القوى، وانحناء الظهر، وشيب الشعر، إشارات لطيفة لطيفة من الله أن يا عبدي قد قَرَّبَ اللقاء فماذا أعددت لهذا اللقاء؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ (18)

سورة الحشر

### محاسبة الله للإنسان يوم القيامة:

ماذا أعددت للدار الآخرة؟ ماذا أعددت ليوم القيامة؟ ماذا أعددت وأنت واقفٌ بين يدي الله عزَّ وجل؟ يقول لك: يا عبدي منحتك الوجود، منحتك السمع والبصر والفؤاد، أعطيتك مالا، أعطيتك زوجة، رزقتك أولاداً، ماذا فعلت؟

وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)

سورة المدثر

الناس ركَّبوا صحوناً فركبنا صحناً، سهروا حتى الساعة الخامسة بعد الفجر ولم يصلوا وفعلنا مثلهم.

وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ

(47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

سورة المدثر

يقول الله عز وجل لعبدٍ أعطاه مالا: يا عبدي أعطيتك مالا فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاَ مخافة الفقر على أولادي من بعدي، يقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

### القلب ينبض فاغتنم القيام بالأعمال الصالحة:

لا أحد متنا سيبقى بعد مئة عام، وربما بعد خمسين عاماً، لا يبقى أحد، وقد أتى في الدهر يومٌ لم نكن نحن جميعاً شيئاً مذكوراً، وسيأتي يومٌ ننتهي، كلنا تحت أطباق النثرى، ألا تقرأون التاريخ؟ أين الرومان؟ أين الأقوام السابقة؟ الآراميون، الكلدانيون، الكنعانيون، أين هؤلاء الذين كانوا في هذه البلاد طويلاً وعرضاً؟ طواهم الردى وأصبحوا خبراً، والله قال: **ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَنُعَدُّ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44)**

سورة المؤمنون

نحن الآن في حياة، القلب ينبض، أنت حر، أنت الآن تملك الوجود، أنت موجود وتملك حرية الاختيار، وتملك طلب العلم، وتملك معرفة الحقيقة، فماذا تصنع؟ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)**

سورة النمل

### معرفة كتاب الله هدف لا يعلو عليه هدف:

أيها الأخوة الكرام؛ والله ما من عملٍ أخطر ولا أعظم من أن تعرف الحقيقة، أن تعرف من أنت؟ أنت كائن لماذا خلقك الله عز وجل؟ لماذا جاء بك إلى الدنيا؟ هل يوجد إنسان يسافر إلى بلد على وجه الأرض وينام في أحد الفنادق ويستيقظ ولا يدري لماذا هو في هذا البلد؟ يوجد هدف كبير يقول لك: رحلة سياحية، سائح، رحلة تجارية، تاجر، رحلة علمية، توجد كلمة واحدة، سافر إلى فرنسا ليدرس الطب في جامعة السوربون، من أول حركة؛ إعداده، أوراقه، نشاطه، مخططه، هدفه طلب العلم، والثاني هدفه التجارة، والثالث هدفه السياحة، فإنسان في الأرض هو في الأرض يأكل، ويشرب، وينام، ويعمل، ولا يدري لماذا هو في هذه الدنيا؟ هذا هو أجهل الجهل، وهذا هو الجهل الخطير ألا تعرف لماذا أنت في الدنيا، هذا الذي يتحرك بحكم أنه حي، يعبر العوام عن هذه الفكرة: عايشين تدفيس:

عن عبيد بن عمير: مثل المنافق كمثل الشاةِ الرابضةِ بينَ الغنمين فقال ابنُ عمرَ: ويَلَكُمْ لا تكذبوا على رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إنما قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **مثلُ المنافقِ كمثلُ الشاةِ العائرةِ بينَ الغنمينِ.**

أحمد شاكر : تخريج المسند لشاكر: خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح

مثل المنافق كالناقة حبسها أهلها لا تدري لا لم حبست؟ ولا لم أطلقت؟ يعيش على هامش الحياة، إنسان الله أودع فيه عقلاً، أعطاه حرية اختيار، أنزل له كتاباً من السماء فيه بيان كل شيء، هذا القرآن منهجنا، كتابنا، كتاب ربنا، بين لك آياته، بين لك تشريع، بين لك المصير، الماضي السحيق، المستقبل البعيد، آياته الكونية، التكوينية، التشريعية، بين كل شيء، لذلك معرفة هذا الكتاب هدف لا يعلو عليه هدف.

### المؤمن الصادق من يطلب العلم:

أنا أرى أن المؤمن الصادق يشكّل حياته وفق مجالس العلم، الأصل مجالس العلم، ولا يحضر هذه المجالس على فراغه، لا، عندك ضيف أنا عندي مجلس علم أعتذر، أحياناً الإنسان يرتّب أوقاته كلّها ومواعيده كلّها على أساس أن هذه المجالس لا بدّ من أن يحضرها، وأن يتابعها لأنها كلام ربنا عزّ وجل، هذه مائدة الله عزّ وجل، إذا أردت أن تعرف حقيقة الإنسان فاقراً كتاب الله، قال لك: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَاَن﴾**.

### الدنيا محط رحال الكافر:

بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا؟ كل يوم كاليوم السابق؟ لا، في يوم مفاجأة، يقول لك: استيقظت فلم أرَ بعيوني، استيقظت فإذا بوجع في صدري، أبدأً، أسأل الناس، يُفاجأ إما بألم في صدره، أو بخلل في بصره، أو في وهن في قوّته، أو بضعف في حركته: فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا؟ هذا الكلام موجّه لغير المؤمنين، هذا الكلام موجّه لمن أحبوا الدنيا، لمن ركنوا إليها، لمن جعلوها محطّ رحالهم، لمن جعلوها غاية آمالهم، لمن جعلوها دَيْدَنهم، لمن جعلوا الدنيا كل شيء.

### ماذا ينتظر الإنسان من الدنيا؟



## 1 - فقراً منسياً:

بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أحياناً لحكمة أرادها الله عز وجل يحق الله المال.

### فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19)

سورة القلم

أحياناً الإنسان يتعلق بالمال فالعلاج عند الله فقد هذا المال، يكون عنده مزرعة يضمنها كل سنة بسبعمئة ألف، صقيع خلال دقائق يدمر كل هذه المزرعة، أحياناً تجارة تخسر، مال يُصادر، بيت يُستملك، مزرعة تحترق، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ هل تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا؟ ألا تعرفون رجلاً كان غنياً كبيراً فافتقر؟ كان قوياً فأصبح ضعيفاً؟

## 2 . غنى مطغياً:

### هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا؟

هل تصدقون أيها الأخوة أن النبي عليه الصلاة والسلام عدَّ الغني المطغي من أكبر المصائب، الإنسان حينما يغتني يتكبر، وحينما يتكبر يبحث عن الشهوات، يريد أن يستمتع بالشهوات المحرّمات، السبب هو الغنى، عندما كان فقيراً كان مستقيماً فلما اغتنى فجر، فهذا الغنى نعمة أم مصيبة؟ مصيبة.

## 3 . مرضاً مفسداً:

قال: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أحياناً مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً، خلل في أجهزته الخطيرة، خلل في بعض حواسه يجعل الحياة جحيماً.

## 4 . هرمًا مفنداً:

أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، ثم يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، أليس هناك رجال بلغوا أرذل العمر فصاروا يعيدون القصة مئات المرّات ويحشرون آناهم

في كل صغيرة وكبيرة؟ أصبحوا عبئاً على أسرهم، تمنى أهلهم خلاصهم ورحيلهم إلى الدار الآخرة.

...أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ  
أَذْهَى وَأَمْرٌ، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ العاقل دائماً يعيش المستقبل، والأقل عقلاً يعيش الحاضر،  
والجاهل الغبي يعيش الماضي.

### الموت لا يعرف كبيراً أو صغيراً:

أيها الأخوة؛ الموت له قاعدة؟ أحياناً الإنسان يبقى في فراشه ثلاثين عاماً مشلولاً،  
وأحياناً يُخَطَفُ وهو في أوج قوته، أليس هناك شباب ماتوا في الثلاثين؟ وفي الخامسة والعشرين؟  
وفي العشرين؟ وفي السابعة عشرة؟ الموت لا يعرف كبيراً ولا صغيراً، ولا إنساناً عقد عقده ولم  
يدخل، ونال شهادته ولم يُعين بموجبها، الموت لا يعرف، لذلك يقول الله عزّ وجل في سورة  
الرحمن:

### كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)

سورة الرحمن

مرّة قرأت كتاب قصص العرب (أربعة أجزاء) قصص كلّها واقعية عن ملوك، وعن  
وزراء، وعن قواد، وعن ضعفاء، وعن فقراء، وعن أغنياء، وعن أذكىاء، وعن حمقى، وعن أجزاء،  
إلخ، كتاب في أربعة أجزاء فيه قصص ما هبّ ودبّ، استفدت من قراءة هذا الكتاب حقيقةً  
واحدة: أن كل هؤلاء الذين قرأت عنهم ماتوا، وكلهم تحت أطباق الثرى، وكلهم انقلب إلى الدار  
الآخرة وسيلقى جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

### تعليق المؤمن والكافر يوم القيامة وجزاؤهما:

ماذا يقول من أوتي كتابه بشماله؟ يقول:

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا  
حِسَابِيهِ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ (28) هَلْكَ عَنِّي  
سُلْطَانِيهِ (29)

سورة الحاقة

يقول الله عزّ وجل:

خُدُوهُ فَعَلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33)

سورة الحاقة

إلى آخر الآيات.

لكن:

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)

سورة الحاقة

### الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء:

كلمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ينبغي أن نقف عندها ملياً، الموت يسوي بين الناس، لذلك الحظوظ في الدنيا؛ المال حظ، الذكاء حظ، العلم حظ، القوة حظ، الصحة حظ، الزوجة الحيدة حظ، الأولاد حظ، الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء.

انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21)

سورة الإسراء

يوجد أستاذ جامعة، ويوجد أستاذ معين في قرية، يوجد مستورد كبير، يوجد بائع متجول، يوجد طبيب جراح عمليته بأربعمئة وخمسين ألفاً، يوجد ممرض يتقاضى راتباً لا يكفيه أياماً، يوجد رئيس أركان ويوجد مجتد، يوجد صحيح ويوجد مريض، يوجد قوي ويوجد ضعيف: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

### العبرة قربك من الله تعالى لا حجمك المالي في الدنيا:

إخواننا الكرام؛ فكرة دقيقة جداً ملازمة لهذه الفكرة، الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء وسوف تورع بعد الموت في الآخرة توزيع جزاء، حظوظ الدنيا لا تعني شيئاً، قد يكون الفقير أقرب إلى الله من الغني، وقد يكون الضعيف أعلى على الله من القوي، وقد يكون المريض أكثر قرباً من الله من الصحيح، وقد يكون الذكي مستحقاً لغضب الله بينما الأقل ذكاءً مستحقاً لرضاه، الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء لكنها سوف تورع في الآخرة توزيع جزاء، الحظوظ في الدنيا مؤقتة ولا تعني شيئاً لكن الحظوظ في الآخرة أبدية وتعني كل شيء، أي الغنى هنا

مؤقت، والقوة مؤقتة، والذكاء مؤقت، والجمال مؤقت، كلّه مؤقت في الدنيا، أما توزيع الحظوظ في الآخرة فأبدي سرمدى، فالعبرة لا أن يكون لك موقعٌ متميزٌ في الدنيا، العبرة أن يكون لك مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ في الآخرة، العبرة قربك من الله لا حجمك المالى:

### صفات الجلال والكمال تخص الخالق وحده:

لذلك الآية الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وجه ربك أي ذاته.

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)

سورة الليل

الوجه هنا الذات الكاملة، ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الجلال أي الله عز وجل قوي، غني، مهيم، عزيز، جبار، متكبر، منتقم، والإكرام؛ رحيم، لطيف، ودود، رؤوف، مُعْطِي، عفو، كريم، صفات الجلال وصفات الإكرام، كلنا في الحياة الدنيا قد نُعْجَبُ بِإِنْسَانٍ وَلَا نَحْبُهُ، نَكِي، في اختصاصه متفوق لكنه لئيم، وقد نحب إنساناً ولا نعجب بذكائه، شخص له قريب طيب جداً لكن محدود، فأنت قد تجد إنساناً تعجب بذكائه ولا تحبه، وقد تحبه ولا تُعجب بذكائه، لكن البطولة أن تعرف الله لأن الله جلّ جلاله يَقْدِرُ ما له من صفات الجلال له من صفات الكمال، جليلٌ وكريم، قويٌّ ورحيم، جبارٌ وعفو، بطشه شديد ومغفرته واسعة، لذلك أسماء الله الحُسنى كله يمكن أنة تنضوي تحت زمرتين: زمرة الجلال، وزمرة الكمال، فربنا سبحانه وتعالى: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

### الإنسان عبد الله لا عبد لعبد لئيم:

بعضهم قال: إنه مُكْرَمٌ عن أن يقع في نقص، مُكْرَمٌ عن أن يتصف بشي لا يليق به، هذا معنى أورده بعض المفسرين، مكرمٌ عن أن يتصف بما لا يليق به، لكن السياق يقتضي أن الله سبحانه وتعالى ذو الجلال وذو الإكرام فهل تتصرف عن الله إلى غيره؟ هل يمكن أن تكون أنت مجيئاً لإنسان؟ محسوباً على إنسان؟ هل في الأرض كلها إنسان يليق بك أن تكون تبعاً له؟ أنت لله، أي لا يليق بك أن تكون لإنسان، ينبغي أن تكون للواحد الديان، لا تكون خطأ إنسان، لا تكون تابعاً لإنسان، لا تكون عبداً لعبد، كن عبداً للخالق، كن عبد الله لا تكن عبد عبدٍ لئيم، أنت أعظم وأكرم من أن تكون تبعاً لإنسان، لأن هذا الإنسان لا ينفَعك.

مرّة أحد الولاة سأل سيدنا عمر فقال له: إن أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم لست أقدر على استخراجهم منهم إلا أن أمسّهم بالعذاب فإن أذنت لي فعلت، فقال له عمر: يا سبحان الله! أتستأذني في تعذيب بشر؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله؟ وهل رضائي عنك يُنجيك من سخط الله؟ أقم عليهم البينة فإن قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تقم فادعهم إلى الإقرار، فإن أقرّوا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يُقرّوا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، ويُؤمّ الله لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم، أي لا يليق بك أن تكون لإنسان، أنت لله، كن حراً.

### التوحيد عين الإيمان:

مرّة والي البصرة ليزيد بن معاوية كان عنده التابعي الجليل الحسن البصري، ويبدو أنه جاءه توجيه من يزيد لا يُرضي الله، وقع هذا الوالي في حيرة وفي صراع ماذا يفعل؟ أينفّذ أمر الخليفة فيغضب الله عزّ وجل أم يمتنع عن تنفيذ أمر الخليفة فيغضب الخليفة ويعزله؟ قال: يا إمام ماذا أفعل؟ إلى جانبه الحسن البصري قال: ماذا أفعل؟ والله أجاب هذا الإمام التابعي الجليل إجابةً تُكتب بماء الذهب، ويمكن أن يستخدمها الإنسان طوال حياته، قال له بإيجازٍ بليغ: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

الذي أمرّك بمعصية الله عزّ وجل يمنعه منك لكنك إذا أرضيته وعصيت الله لا يمنعك من الله، أي إذا الله عزّ وجل سمح لبعض الخلايا أن تنمو نمواً عشوائياً في منطقة حرجة من يمنعه؟ يمنعك صديقك القوي الذي أعطاك رقم هاتفه لتتصل به عند الضرورة؟! تقول له: والله ظهر نمو سرطانٍ دبر لنا إياه، هذا الذي تعترّ به هل يمنع خلايا الإنسان من أن تنمو نمواً عشوائياً؟ بلا سبب، ساعة يقول لك: سرطان في الدماغ، ساعة في العظم، ساعة في الدم، ساعة في الأمعاء، ساعة في القولون، ساعة في المعدة، أليس كذلك؟ قال له: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله، هذا هو التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

### الافتقار إلى الله عز وجل:

ثم يقول الله عزّ وجل في الآية التالية:

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

سورة الرحمن

قال العلماء: يسألونه بألسنتهم، وأحياناً يسألونه بلسان حالهم.

ذكر لي أخٌ أنه قد بلغت كمية الأمطار قبل أسبوع ثلاثين ميليمتراً، في الفترة السابقة من العام الماضي بلغت مئة وثمانين ميليمتراً، ثلاثون من مئة وثمانين، في هذه الأيام الثلاث نزل ثلاثون ميليمتراً كأمطار الموسم هذا كلّه، فالله عزّ وجلّ نسأله، إما أن نسأله بألسنتنا: اللهم اسقنا الغيث، وإما أن يسأله الناس بلسان حالهم، وكل إنسان بحاجة إلى شيء، حاجته إلى الشيء نوعٌ من السؤال، لذلك الله جلّ جلاله يحتاجه كلّ شيء في كلّ شيء، فإما أن تسأله بلسانك، وإما أن تسأله بلسان حالك، وإما أن تكون محتاجاً إلى هذا الشيء، فالحاجة سؤال، والاستعداد لقبولها سؤال، فكل الخلق مفتقرون إلى الله عزّ وجلّ، يحتاجه كل شيء في كل شيء. **﴿يَسْأَلُهُ﴾** الشجرة إذا قلّ ماؤها وذبلت أوراقها كأنها تسأل الله المطر، الدابة إذا جاعت تبحث عن الطعام، هذا البحث كأنها تسأل الله الطعام، الإنسان، الطفل يبكي، لماذا يبكي؟ لأنه جائع، بكاؤه سؤال، فإما هناك سؤال من عاقل، أو سؤال من نبات أحياناً، سؤال من حيوان أحياناً.

### شأن الخالق مع كل مخلوق شأن في منتهى الحكمة والكمال:

**﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾** لكن كل يوم هو في شأن، أي شأنه مع المستقيم الإكرام، وشأنه مع العاصي المعالجة، وشأنه مع الكريم الإعطاء، ومع البخيل الإتلاف، الله عزّ وجلّ حكيم، له مع كل مخلوق وفي كل وقت شأن، شأن حكيم، له مع كل مخلوق وفي أي وقت بحسب حال المخلوق شأن.

أنت أب، لك ابن صحته طيبة، ولا يشكو شيئاً، تقول له: كُنْ يا بني، كُنْ ما شئت، لكن أنت أب (أنت أنت)، الابن مريض معه التهاب أمعاء شأنك معه أن تمنعه من هذا الطعام، وأن تجعل له طعاماً خاصاً به، شأنك مع ابنك المتفوق أن تُكرمه، ومع ابنك الكسول أن تؤدِّبه، شأنك مع ابنك الصادق أن تُثني عليه، ومع ابنك الكاذب أن تزجره، وأن تعتقه، شأنك مع من يرضيك أن تُرضيه، وشأنك مع من يعصيك أن تؤدِّبه، فالله عزّ وجلّ يغفر وينتقم، يرحم ويغضب ويرضى، ويعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويصل ويقطع، ويُعزّ ويذلّ، الإعزاز شأن، والإذلال شأن، والإعطاء شأن، والمنع شأن، والقبض شأن، والبسط شأن، والإكرام شأن، واللقاء التجلي في قلب المؤمن شأن، وحجبه عن هذا التجلي شأن، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يُعزّ ويذلّ، يقرب ويبعد، يقطع ويصل، يتجلى ويمنع تجليه، له نفحات تأتي إليك وقد يمنعها عنك، شأن، ربنا عزّ

وجل حكيم وعليم وغني وقدير، شأنه مع كل مخلوقٍ شأنٌ في منتهى الحكمة والكمال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

### شأن الله مع العباد شأن حكيم:

الآن تروي القصة أن سيدنا موسى دعا الله بالسقيا - لا توجد أمطار - فأوحى الله إليه: أن يا موسى إنَّ فيكم عاصياً، فقال موسى عليه السلام لمن حوله: من كان عاصياً لله فليُغادرنا، ما غادره أحد والأمطار هطلت، قال: يا رب من هذا الذي يعصيك من بيننا؟ قال: عجبت لك يا موسى أستره وهو عاصٍ وأفضحه وهو تائب!!

أحياناً يستر، أحياناً يعطي، يقول لك: من لا شيء صار كل شيء، من الفقر صار غنياً، من الضعف صار قوياً، من البلادة صار ذكياً، شأنه مع العباد شأن حكيم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الآن طبيب - شيء من العلم - مرَّ على المرضى في المستشفى فنظر الضغط عال أوقفوا عنه الملح، نظر إلى الثاني الضغط منخفض أعطوه ملح زيادة، يوجد عنده انهدام بالخلايا أطعموه لحماً، هذا معه شحوم زائدة بالدم أوقفوا المواد الدسمة أعطوه خضراوات فقط، طبيب في بدايته كل مريض بحسب تحليل الدم يعطي أمراً، أوامر متناقضة، طبعاً الذي ضغطه عال لا يعطيه ملحاً، ضغطه منخفض يعطيه ملحاً، الشحوم زائدة يعطيه خضراوات، البروتين ضعيف يعطيه لحوماً، مع كل مريض له شأن.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)

سورة النحل

### الإكرام عاقبة الشكر والقسم عاقبة الكفر:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ إذا تبت له شأن معك، لم تتب له شأن معك، دعاك إليه بالبيان فإن استجبت له شأن، وإن لم تستجب يوجد شأن ثانٍ، يوجد تأديب، تضرعت له شأن، لم تتضرع له شأن ثالث، إكرام استدراجي، شكرت يوجد شأن، لم تشكر يوجد قسم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أنفقت زكاة مالك شأنه معك أن يحفظ لك مالك، بخلت بزكاة المال شأنه معك أن يُتلف المال، أقمت زواجك على طاعة الله شأنه معك أن يوفَّق بينك وبين زوجتك، أقمت الزواج على معصية الله شأنه معك أن يُفَرِّق بينكما، كسبت المال الحلال شأنه معك أن يبارك لك في هذا المال، يكفيك هذا المال، درهم من حلال يكفي لأن فيه بركة، الله عزَّ وجل من الشيء القليل

يهب الشيء الكثير، بكسب المال هناك شبهة شأنه معك إتلاف المال، طبقت الشريعة في طعامك وشرابك شأنه معك حفظ أجهزتك، خالفت الشريعة شأنه معك إتلاف الأجهزة.

عدل الله المطلق في كل شؤونه:

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ شأنه أن يغفر الذنب، وأن يقبل التوبة، وأن يعفو عما مضى، وأن يؤدّب، وأن يُعاقب، وأن يُعالج، وأن يُغني وأن يُفقر، وأن يعطي وأن يمنع، وأن يرفع وأن يخفض، وأن يُعزّز وأن يذل، هذا شأن الله، لكن بالعدل المطلق، والحكمة المطلقة، والرحمة المطلقة:

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30)

والحمد لله رب العالمين